المرأة والمجتمع (*)

سيداتي سادتي : يسرني أن أقف الليلة محامياً عن المرأة ، مدافعاً عن حريتها ، مصححاً لكثير من الآراء الخاطئة التي أحاطت بقضيتها . والحق انني لست الاول في هذا ، فان كثيرين من الكتّاب الحديثين راجعوا الموضوع وغربلوه ، وراجعوا أصوله ، واستعرضوا المسألة بيولوجيًا وفسيولوجيًا وسيكولوجيًا ، فأمكن أن يضعوا الكثير من الامور في نصابها . ولقد تناول الباحثون دراسة المرأة : (أولاً) على ضوء الفروق الفسيولوجية والتشريحية بينها وبين الرجل . (ثانيا) على ضوء الفروق السيكولوجية بين المرأة والرجل . (ثالثا) على ضوء الاحصائيات والارقام . (رابعا) على ضوء الوقائع المثبتة في التاريخ والسير . (خامساً) على ضوء البيانات والحقائق المستمدة من علم الحياة — وبخاصة ما جرى في سلسلة التطور — وإني شخصيًا أفضل أن أبدأ من هذه النقطة الاخيرة : لأصل الى نقطة تهمني جداً في البحث ، وهي ان المشكلة كلها نشأت من ان الانثى رضيت أن يكون نصيبها من العمل حفظ الذرية ، بواسطة التناسل ، والسهر على النوع ورعايته خوفاً من انقراضه . وتركت للرجل النصف الثاني من العمل ، وهو جلب القوت ، والتنقل في سبيله ، والتفنن في اجتلابه . معنى ذلك انها اضطلاعاً منها بالمسؤولية الكبرى ، وهي حفظ النوع وانتشاره ، رضيت أن تبقى حيث هي في مكانها — على رأي الانكليز Tends & attends — ومعها أولادها ، في انتظار ما يأتي به الرجل ، أي انها رضيت في سبيل المصلحة العامة ان تعتمد على الرجل وتركت له أن يمولها اقتصاديًا ، مؤمنة بأن قيمة العمل المنوط بها جدير بأن يعادل ما فقدته من حريتها الاقتصادية ، جدير بأن ينسيها الاسر والقيود التي كلفتها بها الامومة بالنسبة للحرية التي يملكها الرجل والتي أعطته صورة من صور السيادة أساء استعمالها فيما بعد . إن المسألة البيولوجية مشت على الوجه الآتي : كل الذين درسوا علم الحياة يعلمون أن الاميبا تنقسم عدة أقسام لا تلبث أن تنفصل ويصير كل منها جزءاً مستقلا . ولقد كان في الامكان أن تظل هذه الوسائل قائمة ، أي انقسام الخلايا ، ما دامت هذه هي الطريقة

(*) ألقيت بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول في شهر ابريل

التي يتكوّن بواسطتها الجنين وينمو . . . ولكن الذي جرى أن الطبيعة ، حرصاً منها على الذرية ، رأت في مرحلة التطور الثانية ، ان يبقى الصغار على الأم حتى ينضجوا ، ورأت كذلك أن من الجائز ان يعطوا عملاً بدل بقائهم على الأم عاطلين ، فلما أعطوا عملاً مختلفاً تميزوا ، ولما تميزوا ، صار هناك ذكر وأنثى بعد ان كانوا متشابهين ، فلما انفصلوا عن الأم صار كل نصف يبحث عن نصفه الضائع ، وهذا هو الحب في أول حواشيه . فاذا التقى الذكر بالأنثى ابتلعته انثى وطوته في داخلها ، ثم جعلت حولها سوراً يتكوّن في داخله المخلوق الجديد ، وكل ذلك يحدث في مكان أمين . . . هو ما نسميه نحن الآن Home أو Foyer . من ذلك الوقت اصطبغت بصبغة الأمومة ، واصطبغ الرجل بصبغة الحارس الحامي للذمار الجالب للقوت المتفنن المغامر . ومن ذلك الوقت صارت الأمومة صبغة الانثى التي لا تفارقها — وصارت الحركة والمغامرة ومظاهر القوة من خصائص الرجل التي لا تفارقه . . . وصارت العاطفة الطابع الخاص بمرأة ، بصفتها أمّاً تضم حولها صغارها برباط المحبة ، وتجتذب الذكر بصفات العطف والحنان . وصار التعقل والتخيل والتحايل والابتداع أشياء أساسية في حياة الرجل ومنطبقة على طبيعة عمله الذي وصفناه وهو طلب الرزق وجلب القوت . .

وما دامت الحياة في أساسها استجابة لعوامل خاصة ، فقد صارت فسيولوجية الانثى عند ما تطوّرت وصارت امرأة انسانة ، مماثلة لخصائصها كامرأة ، وصار تشريحها عند ما تطورت مماثلاً لخصائصها كامرأة ، وصارت سيكولوجيتها ، مطابقة لوصفها كأم تتناسل وتكلف تربية الأولاد والسهر عليهم ، ولما كانت الحياة كذلك تفاعلاً بين الشخص والوسط ، فقد كان خُلُق المرأة — من حيث ان الخُلُق — هو كيفية تصرف ، استجابة لعوامل الوسط .

ولقد كانت استجابتها لكل ما كلفت به كاملة ورائعة . وقامت بواجبها على أتم ما يمكن وساعدتها الطبيعة أحسن مساعدة ، فمن جهة الفسيولوجيا منحتها تركيباً فسيولوجيّاً مطابقاً كل المطابقة لما أعدت له ، فان تركيبها العصبي في شدة حساسيته ، وفي استجابته السريعة للمؤثرات ، والعدد الصمّ في المرأة وافرازاتها المدهشة ، كل ذلك وغيره ، ساعدها على أن تؤدي وظيفة المرأة الأم أحسن تأدية . ومن جهة التشريح : أثبت علم التشريح المقارن ان المرأة هي التي تحمل علم التطور . ولقد قال هاتيلوك : أليس بحق أن المرأة هي التي تحمل علم شباب الانسانية . بدليل ان في الطفل والمرأة تركيب الرأس وغير ذلك من دلائل التطور ، تدل على أن التطور هو فيهما وبهما . . . وأما الانسان البالغ فكلما تقدم في العمر ، ينحدر شكله الى شكل القرود ، فهو بذلك يمثل مرحلة سالفة .

فمن يقول إن المرأة أقل في أي صفة تشريحية أو فسيولوجية فهو مخطىء . . . واذا

اعتقد أحد ان الرجل يزيد في صفة من هذه الصفات عن المرأة فقد ضلّ الصواب . فلقد سمع من يقول إن وزن المخ يختلف ، أو أن هذا العضو أو ذاك أكبر في الرجل من المرأة . ان المرأة مخلوق كامل في نفسه ، ومن حيث وظيفته كامرأة — والرجل في ناحية تام التركيب كرجل ، فلا معنى اذاً للتفاضل .

تأتي الآن لنقطة هامة جداً ، وهي مسألة السيكولوجية . وهذا أهم ركن في موضوعنا هذا. لقد نشأت الخصائص السيكولوجية للمرأة من شيئين — الأول : طبيعتها كامرأة ، والثاني : من وظيفتها كأم — ولقد قال الباحث ثارنج انه في عدة قبائل كان الرجل مكلفاً بما تقوم به الأم الآن من تكاليف البيت والسهر على الأولاد ، والأم مكلفة بما يقوم به الرجل الآن من السعي وراء القوت . فكان للرجل خصال المرأة ، وللمرأة خصال الرجل . . ومن يدري لعله لو طال العهد بذلك لحدث ما نسميه الخصائص الثانوية للجنس ، أي لانبتت المرأة ونعم جلد الرجل ورقّ صوته . . . وعلى كل يقول ثارنج : انه من الظلم أن نجعل وجهاً للمقارنة في عصرنا الحاضر بين المرأة وبين مدنية ، هي في الواقع « مدنية رجال » ! إذ الصواب أن نقارن بين مدنيتين ، واحدة من صنع المرأة والأخرى من صنع الرجل . . .

أما وظيفة المرأة فجعلت مركزها الاجتماعي الحالي مخالفاً لمركز الرجل . ولم يكن كذلك في العصور القديمة ، فان حركة مطالبة المرأة بحقوقها ، حركة حديثة جداً ، والسبب في ذلك ان مركز المرأة قديماً كان مركزاً لا جدال في أهميته في العائلة . فقد كانت هي التي تحيك ، وتطبخ ، وتقوم بالجملة بكل احتياجات المنزل ، وكان الرجل يأوي الى هذا المكان الذي هو كله . وكل شيء فيه ، من صنع ، يدي المرأة وتدبيرها . فلما أخذ العالم يصير ميكانيكيًّا صناعيًّا ، أخذت أغلب الأشياء التي صنعتها المرأة بيديها في المنزل ، تصنع في الخارج . وتشترى من السوق ، وزاد على ذلك ان الرجل نفسه هجر ذلك الوكر الذي كانت المرأة تتفنن في اعداده ، رويداً رويداً ، لأنه شغل بمهام العصر الميكانيكي الصناعي واندمج فيه ، وقد مرّ عليه وقت كان هو هو ذاته يعمل بيديه ويخلق من فكره . فصار آليًّا ، استعبدته الآلة وقضت على فنه . ولكنها لم تقلل من غروره واحساسه بالسيادة والسلطة .

الخلاصة من ذلك ان المركز الاجتماعي للمرأة تقلقل بتقلقل القيمة التي كانت لها في البيت والعائلة . وبتغير العصر وصيرورته آليًّا ميكانيكيًّا . ولما أخذت المرأة تنادي بحقها ، كانت في الواقع تنادي برضعها في مكانها الذي كانت قيمته عالية ومقدرة ، فصار الرجل يتهمها بسوء الخلق ، والخروج على المألوف . ويندد بصيحتها ، وأخيراً صار هناك من يقول إن المرأة يجب أن تعود إلى المنزل ، وفاتهم شيء يجب أن يلتفتوا اليه ، فاتهم شيء

صيت عنه أعينهم ، وهو أن العالم تغير بياناً ، وإن المرأة لاتستطيع أن تعود لما كانت عليه منذ آلاف السنين ، بل يجب أن تجد حلاً يتفق مع أمرين : طبيعتها كامرأة ، ومركزها الجديد في العالم الحديث المتغير . يجب أن نضع الخمر القديم في زجاجات جديدة . أما من يقول ان ذكاءها أقل من الرجل فهو واهم . ما هو الذكاء ؟؟ الذكاء هو سرعة الادراك ، وسعة الخيال ، والانتباه . أما سرعة الادراك فواضح جداً في المرأة ، بل إننا لنجد ذلك في روايات كثيرة ، فانه اذا ارتبك الرجل والمرأة في موقف ما ، فان المرأة هي التي تلمح شبح الخطر ، وهي التي تنقذ الموقف ، ومن سرعة الادراك ما يسمى بالتأثرات الثانوية ، أي مقدار ثبات المدركات الحسية في اللاشعور . فلقد ثبت ان المرأة يبقى في ذاكرتها الأثر الصغير لمدة طويلة . أما الخيال ، فلا ينقصها ، وان كان الرجل يمتاز عنها فيه . ويبقى الانتباه ، Interest . وأعتقد أن كل ما يعاب على المرأة من جهة عدم نجاحها في العلوم والرياضيات ، ليس ناشئاً من قصور ذكائها ، بل من عدم ميلها وانقيادها لهذه الناحية ، لأنها لا تتفق وعاطفتها السيكولوجية المبنية على الانفعال . والانفعال لا يعنى بالتجريد ، بقدر ما يعنى بالحقائق الجامدة Concrete

ينقلنا هذا إلى انفعال المرأة Emotion فان تركيبها كأم ، جعل العاطفة محور حياتها ، وغددها جميعاً تخصصت لذلك . وطبيعة الانفعال تميل إلى النظر للحقائق والجوامد .

ومن هذا كانت المرأة مقتصدة أكثر من الرجل ، لأنها تميل إلى الجمع والتجميد .

ومن هذا كانت المرأة لا تميل إلى التحليل ، بل الى الأخذ بجملة الشيء .

فاذا أحبت أحبت بلا تشريح ولا تدقيق . وإذا نظرت في حساب نظرت للجملة . وإذا نظرت لقضية سألت عن النتيجة . وإذا اقتنعت لم تقتنع بالكلام والشرح ، بل بحقيقة ملموسة ، كهدية أو فستان . من هذا يتضح أن المرأة عملية ، بينما الرجل خيالي .

ولقد اتضح من الأرقام والبيانات في المدارس والجامعات ان البنات أميل إلى النظام ، وأكثر اجتهاداً وأحسن نتيجة ، وان كان ينقصهن الخلق والابتكار ، ويختلفن عن الذكور في أنهن يستطعن أن يركزن فكرهن في أكثر من شيء واحد في وقت واحد ، وذلك لضيق الوعي عندهن . ولكن الاختلاف ناشيء على كل حال من أن المرأة ذات طبيعة انفعالية لا تساعد على التجريد والتخيل . وكذلك لا تساعد حدة الانفعالات على النبوغ في الفنون والآداب . لأن الفن الخالد يحتاج إلى انفعال لا يغمر الوعي ويغرقه .

فهؤلاء الذين يقولون ان ذكاء المرأة ناقص يتكلمون عن الذكاء ككتلة ، بينما الذكاء عناصر تتكون منها مجتمعة (ذكاء) والصفة هي التي تختلف . وبين الذين يقولون ان

المرأة لا تنفع لهذا الشيء أو ذاك، يجهلون طبيعة المرأة كل الجهل . فإن في طبيعتها ما يؤهلها لأعظم الأعمال . خذوا مثلاً ، طبيعتها العملية ، وخذوا مثلاً نجاحها في المسائل الاقتصادية ، وخذوا مثلاً احترامها بالحقائق الملموسة ، وإلمامها بالواقع المحسوس ؛ هذه الفضائل بقيت محصورة في دائرة العائلة ، وعلى مرّ الأجيال ، نسيت هاته الفضائل ، وصارت البنت تنمو في وسط تسمع فيه تحقيرها بأذنيها، وترى تفضيل الذكور عليها ، وكثيراً ما تسمع ذمّاً في جنسها كله ، مما أضاف إلى الثورة الحاضرة، وجعل للمرأة عذراً في المناداة بحقوقها ، والواقع انها لا تنادي بحقوق ، وانما تنادي باستعادة مكان ضائع ، والاعتراف بفضائل أنكرت .

فاذا نظرنا إلى المجتمع ، الذي تنادي بالدخول في غماره ، وجدناه مكوّناً من شيئين : أحدهما كمالي وهو الفنون والآداب . فاذا سلمنا جدلاً انها بطبيعتها لا تنبغ فيهما لأن الفن والأدب يستلزمان مؤهلات خاصة ، فتركهما للرجل يتمتع بهما ويخلد فيهما — والثاني ضروري — بل هو المجتمع بأجمعه ، وهو الصناعة والسياسة . ومن جهة الصناعة فحكم روسيا الحديثة ، فان المرأة أثبتت هناك ان هذا عالمها ، ونجاحها في المسائل الصناعية جعل لها مكاناً ممتازاً ، ومن يدري ربما كان انتاج روسيا الرائع في الآلات وغيرها هو من زيادة الأيدي باقبال النساء على الصناعة . ولقد أقبلن عليها بدون أن يضايقهن الحمل والولادة ، فقد تكفلت الحكومة بمراعاة الحوامل ، والالتفات للأولاد ، حتى لا يكون منهم عائق للأمهات .

أما من جهة السياسة فقد راجع « بروانج » عصور النساء اللواتي تولين الحكم . فوجد ان عصورهن من أزهى عصور التاريخ . وذكر ذلك انه في أكثر القبائل نجد النساء هن اللاتي يتولين حل المشاكل ويتفاهمن على المسائل الكبرى .

وكذلك اثبتت البيانات الحديثة ، وبخاصة في الحرب الحاضرة ، نجاح المرأة في الأعمال الكتابية والادارية . فاذا كانت هذه هي المرأة : هي السبب في عمران العالم ؟ وهي التي قبلت التضحية، وهي التي رضيت باستعباد الرجل على شرط ان تحفظ قيمتها — وقد ظلمها الرجل ، وأشاع أنها قاصرة العقل ، وأنكر عليها مواهبها — وحين يتغير العصر ، وتمصف بالدنيا احوال جديدة ، وحين تريد هي أن تبذل مواهبها الكامنة وتقدم استعداداتها للمشاركة في اصلاح العالم ، يجيء من يقول لها : مكانك البيت ! فتلتفت لترى « البيت » . فاذا الحال غير الحال . تراه مقفراً وقد خلا من معاني العائلة ، وترى الرجل في حياته الجديدة ، حياة العمل وحيداً ، وتجده مرتبكاً ، وقد ستر متاعبه بأنانية كاذبة ! أليس لها الحق في أن تقتحم هذا المجتمع ؟ أعتقد أن لها الحق وأعتقد أنها ستفوز ....

دكتور ابرهيم ناجي